# فن الاتكال

يسحب الـزوج نفسًا عميقًا من ليّ المدخنة (أداة لشرب الدخـان)، ثم يدخل يده في جيبه ساحبًا الجوال؛ ليهاتف أم العيـال: وصلتم! أنا سأتأخـر قليلًا في استراحة الزملاء. ثم يأتـي منزله فجرًا، فالأولاد مـا أن يدخلوا المنزل حتى يرموا كل شيء في أيديهم، حقائبهـم المدرسية، وأحذيتهم، وبقايا فسحتهـم، ثم يصيـح الصبي ذو العاشـرة في وجه الخادمة الآسيويـة: هاتي لي ماءً، فتركض فزعـة؛ لتحضر كوب الماء لهذا الصبي المأفون، وهو لا يريد ماءً قدر ما كان يريد أن يلقي أوامر! أطفالنا ما أطول ألسنتهم أمام أمهاتهم والخادمات، ولكنهـم أمام الكاميرا يصبحون كالأرانب المذعورة، لا أدري كيف يحدث هذا؟!

أحسـن شـيء سائـق وشغالة، مـن يتحمـل مشاوير أم العيـال، ومـن يتحمل قيـادة السيـارات في شوارعنا المكتظة بالمخالفات المرورية والطائشين والسائقين النزقين؟ فليتحمل المسؤوليـة السائق الآسيوي، فكلها حفنة ريالات، ومن يتحمل غسـل الصحون والملابس وشطف البلاط وريّ الحديقة وكي الملابس؟

آه مـا أثقل دم كي الملابس، ها هـي حفنة ريالات أخرى لخادمـة آسيوية تعمـل كل هذه الأعمال الشاقـة، ولتتفرغ أم العيال لتصليح الحلى، والبنـات لمتابعة الفضائيات والتجول في الأسـواق، والأولاد لمضايقة بنـات الناس في الأسواق! وهو لا يـدري أنها يمكن أن تكون أخته في يـوم من الأيام، الكسل أحلى من العسل، ماذا جنى الأولاد والبنات من هذا الكسل؟ لا شـيء سوى الطفش! دائمًا صغارنا وكبارنا طفشانون؛ لأنهم لا يعملـون شيئًـا، فمن لا يتعب لا يحس بطعـم الراحة، ومن لا يجـوع لا يحس بطعم الأكل، كل مشاويـر بيتزاهت وماكدونالد لم تعد تسعد صغارنا، ولم تبقَ إلا متعة صغيرة في النوم في بيت الخالة التي لا يسمح بها دائمًا، ولذلك بقي لها شيء من المتعة.

هـذا السيناريـو سائـد في معظـم المنـازل السعوديـة والخليجيـة، فالمصيبـة لا تحـدث الآن، ولكنهـا تحـدث بعد عشريـن سنة مـن التبطح تكـون نتيجتها بنتًـا غير صالحة للـزواج، وولدًا غير صالـح لتحمل أعباء الـزواج؛ لأن غياب تحمـل المسؤولية مـدة عشرين عامًـا لا يمكـن أن يتغير من خلالهـا الابـن بسبب قـرار الـزواج أو بسبب تغـير سياسة المنـزل؛ لأن هذه خصال وقـدرات إذا لم تُبنَ مع الزمن فإنه من الصعوبة بمـكان استعادتها. الانضبـاط ممارسة يومية لا يمكـن أن تقـرر أن تنضبـط في سـن متأخـرة لكي يحدث الانضباط. وبلا انضباط لا يمكن أن تستقيم حياة.

بيـل جيتس أغنى رجـل في العالم يملـك ٤٩ ألف مليون دولار، أي مـا يعادل ١٨٠ ألف مليون ريـال سعودي، يعمل في منزله شخصـان فقط، تخيَّلوا لو كان بيل جيتس خليجيًّا كم عاملًا سيعمل في منزله؟

ثلاثون أو أربعون أو... ألف، أو أهل إندونيسيا كلهم!

أذكـر أيـام دراستـي في أمريـكا أنني سكنت مـع عائلة أمريكيـة ثرية، ولم يكونـوا يأكلون في ماكدونالـد إلا مرة في الشهـر، وتحت إلحاح شديد مـن أولادهم، ولم يكن أولادهم يحصلـون علـى مصـروف إلا عـن طريـق العمـل في شركة والدهـم عن أجر بالساعـة، فلا أحد «يبعـزق» الأموال على أولاده كأهل الخليج.

جيـل الآباء الحاليـين في الخليـج عانى شظـف العيش وقسـوة التربيـة، فجاء الإغـداق المالي والـدلال على الجيل الحالي بلا حدود تعويضًا عن حرمان سابق، أما أثرياء عرب الشام ومصر فأكثر حذرًا في مسألة الصرف على أولادهم.

الآن أجيـال كثيرة في الخليج قادمـة للزواج لن تستطيع تحمـل الأعباء الماليـة لخادمة، حتـى إن كانـت خادمة بيت الأهل تقـوم بهذا الدور مؤقتًا، فإنها لـن تستطيع على المدى الطويـل، والابـن الفاضل سيتأفـف من أول مشـوار لزوجته

الجديدة، ثم تبدأ الشجارات الصغيرة والكبيرة التي تتطور، وتصل إلى المحاكم، وتنتهي بالطلاق، وهذا ما يفسر ارتفاع معدلات الطلاق في المملكة والخليج في السنوات الأخيرة.

نحن في الخليج كمن يلعب مباراة كرة قدم ومهزوم فيها تسعة أهداف لصفر، وفي الدقيقة ٤٩ من الشوط الثاني للمباراة لا يريد أن يتعادل فقط، بل يريد أن يفوز! وهذا في حكم المستحيل، هذا ما يحدث بالضبط في الخليج على المستوى الأسري، وأحيانًا على المستوى الدولي.

الحياة كمباراة كرة القدم إذا أردت أن تكسبها، فلا بد أن تُعدّ نفسك لها إعدادًا جيدًا بالتدريب والممارسة الجيدة، والأهم من ذلك أن تلعب بجدّ من الدقيقة الأولى من المباراة، وليس في الدقيقة ٤٩!

في الخليج يعيشون الحياة على طريقة «تتدبر» يذهبون إلى السينما متأخرين، ثم يجدون التذاكر قد نفدت، ثم يجادلون بائع التذاكر «دبّر لنا ياخي» هذه التذاكر ينطبق عليها ما ينطبق على تربية الأولاد، وتحمل المسؤولية والمستقبل وتبعاته، في المجتمع المدني يجب أن تدبر أمورك مبكرًا، وفي أمور الحياة يجب أن تبذل عمرك كله، الطفل الذي يرمي حقيبته بجانب أقرب جدار في المنزل سيدفع

ثمن هذه اللامبالاة، حينما يكبر، ومن أصعب الأشياء تغيير الطبائع والسلوك.

«تتدبر» هذه تصلح قديمًا في زمن الغوص وزمن الصحراء والحياة في انتظار المطر، ولكنها لا تصلح للحياة المدنية التي تحتاج إلى انضباط ومنهج وتخطيط وتدبير منا نحن في كل شؤون حياتنا منذ الدقيقة الأولى من المباراة.

الآن: من نلوم على هذه اللامبالاة، هل نلوم النفط؟ أم الآباء، أم الأمهات، أم الأولاد، أم البنات؟ أم «تتدبر».

**تدبر:** السؤال المهم هنا: كم واحدًا منا بعد قراءته هذا المقال سيتغيّر؟

obeikandl.com